الشيب في الشعر العـربي القديم ـ دراسة وصفية تحليلية

د. أمينة عبدالله الحشــاني ــ كلية التربية ـ جامعة بنغازي
Amina.alhashani@uob.edu.ly

Gray Hair in the Old Arabic Poetry - A Descriptive Analytical Study

Dr. Amina Abdullah Al Hashani - Faculty of Education, University of Benghazi

Abstract

This study, titled "Youth in Ancient Arabic Poetry", addresses the phenomenon of youth as it emerged in Arabic poetry. The poets expressed it through their techniques, visions, and their existential experience, which reflects a transition from vitality and prosperity to the announcement of the approach of death and demise. The poets became preoccupied with inner anxiety, tension, and sadness as the flame of life dimmed. Some tried to hide this youthfulness, which appears younger when we find poets using verbs and promises deceitfully and falsely.

Some poets, however, responded differently and saw in youth wisdom and righteousness. They created a rhetorical system that reinforced the values that society feared and exposed this youthfulness.

The poet's conflict with youth often manifested in symbolic cases. For example, the man's departure when preoccupied with the hardship of life and its struggles reflected his resistance to aging. If a woman's absence pushed him toward loneliness, then the mother's pain inspired him to surrender to a seductive woman, a tempting experience, or a fatal adventure that transcended these limitations.

الملخـــــص :

نتناول في هذا البحث الموسوم بــ : " الشيب في الشعر العربي القديم "هذه الظاهرة التي عبر عنها الشعراء فتباينت تجاربهم ورؤاهم لهذه التجربة الوجدانية إذ وقد نضحتْ أشعارُهم بما يختلج أنفسهم من قلق وتوتر وحزن يوحي بانطفاء شعلة

الحياة، فعمد بعضهم إلى إخفاء الشيب كي يبدو أصغر، في حين نجد أن من الشعراء من رفض هذا الفعل وعده عيبًا وزورا ، ولا نعدم وجود شعراء آخرين دافعوا عن الشيب، ورأوا فيه الحكمة والصلاح ، بل صنعوا له منظومة حجاجية ترسخ القيم الرفيعة التي يجُلُّهَا المجتمعُ ويظهرها الشيب

لقد صارع الشعراء حالات شعورية كانت المرأة على هرمها،فقد كان عزوف المرأة عن الرجل حين يشتعل رأسه شيبا حسرة وغصة زادت من ألمه، لكن هذا الألم دفعه إلى التمرد على الشيخوخة، فحاول ألا يستسلم لها فاتحا نافذة تطل منها أمجاده ومغامراته الفائتة بغية تحقيق معادلة الحالة السلبية التي يعيشها.

الكلمات المفتاحية: (الشيب، المقدمة الغزلية، الشباب، الخمر، الرحيل)

المقدمـــــــــة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين

الشيب علامة الكبر وهو نذير بالرحيل ويعد من أكثر الظواهر الإنسانية وأصدقها؛ إذ يعبر عن أحاسيس صادقة تغمر الوجدان، قال بعض البلغاء: " الشباب باكورة الحياة، وأطيب العيش أوائله كما أن أطيب الثمار بواكيرها"(الأبشيهي،231**:2005**)، وقيل: " الشيب حلية العقل وشيمة الوقار، الشيب زبدة مخَّضتْها الأيامُ وفضة سبكتها التجارب، سرى في طريق الرشد بمصباح الشيب، عصى شياطين الشباب وأطاع ملائكة الشيب" **(الحصري: 899،د:ت)** وهو علامة اقتراب انطفاء جذوة الحياة وعادة ألا يكون مرحبا به.

لقد عبر الشعراء في أشعارهم عمَّا يختلج أنفسهم من قلق وتوتر وحزن توحي بانقضاء الشباب وانطفاء شعلة الحياة المتقدة حيوية، ونذير بالرحيل. وإن جعله بعضهم علامة على الاتزان والحكمة وباعث على الحزن على ما فات والانكفاء على النفس والحنين إلى أيام الصِّبا والشباب.

وقد تناول الدارسون هذه الظاهرة؛ ولكن تناولهم لها جاء جزءا من المقدمة الغزلية؛ إذ جاء في سياق محاورة الشاعر القديم لحبيبته، وفي سياق ذمه للشيب الذي يُنذرُ بانتهاء شبابه، وما يُسفر عن هذا الانتهاء من شعورٍ بالقلق والتوتر بسبب العجز، ما يتبعه من صدود الغواني وبعدهن.

الشيب يعكس تجربة وجودية وصراع بين الحياة والموت (عبد الرحيم وهابي، 2013) ، وقد تناولته دراسات سابقة - وإن كانت قليلة- لكننا في هذه الدراسة نتجاوز أن يكون موضوع الشيب في أشعار الشعراء هامشياً ضمن مقدمة غزلية أو تقليدا شعريا يتتبعه الشاعر. إن هذه الظاهرة لها دلالتها النفسية على الشاعر بما تطبع في نفسه ووجدانه من شعور متباين بين الرضا والوقار والتذمر والقلق وبما يحمل من دلالات نفسية- أيضا – تجاه الزوجات والغواني منه.

وتهدف دراستنا(الشيب في الشعر العربي القديم) اعتمادا على المنهج الوصفي إلى إيضاح هذه الظاهر في الشعر والوقوف على دلالاتها النفسية والاجتماعية وكان استقراء الشعر العربي القديم سبيل الباحث

الدراسات السابقة :

من الدراسات السابقة التي تناولت هذه الظاهرة :

1-الشيب والهرم في الشعر العربي في العصر الأموي ودلالاتها الفنية: علي حسن الجنابي، جامعة بغداد رسالة دكتوراه 1997

2-موقف الشعراء من الشيب من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي: علي بن ناصر بن عبدالله جماح، الناشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – عمادة البحث العلمي، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد 52/ 2006

3-الشيب في الشعر الجاهلي أسبابه والمواقف منه وصوره المجازية ، خليل عبد سالم، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها مج 4 ع 4 ، الناشر جامعة مؤتة عمادة البحث العلمي ، 2008

4-الشيب في الشعر العربي القديم، المجلة العربية، العدد 583 عبدالرحيم وهابي ، 2013، دار المجلة العربية للنشر والترجمة

الشيب في اللغة :

جاء في لسان العرب أن الشيب بياض الشعر، ويقال: علاه الشَّيبُ. يقال رجلٌ أشيبُ ولا يقال امرأة شيباء، ولا تُنْعتْ به المرأة، واكتفوا بالشَّمْطاء عن الشيباء، والمشيبُ دخول الرجل في حدِّ الشَّيب من الرجال، والأشيب: المبيض الرأس. (ابن منظور: مادة شيب) وفي المعجم الوسيط الشيب بياض الشعر وربما سُمِّي الشعر نفسُه شيبا، شاب فلان شيباً وشيبةً: أبيضَّ شعره ويقال شاب الشعرُ وشاب الرأسُ فهو شائب وأشيب، والأكثر أن

يقال للرجل أشيب وللمرأة شمطاء ويقال شابت رؤوس الأكام وغيرها ابيضَّت بالثلج" (المعجم الوسيط مادة شيب) ، وفي تاج العروس الشيب معروف قليله وكثيره ورُبَّما سُمِّي الشعر نفسه شيباً . وقال ابن السكيت في قول عدي

تَصْبُو وأنَّى لك التَّصابي والرأسُ قد شابه المشيبُ

وأنشـــــــد :

وقد رابَهُ ولمثلِ ذلك رابَهُ وقعَ المشيبُ على السَّوادِ فشّابَهُ

أي : بيض مُسْوَدَّه ، ويقال شاب يشيبُ شيباً ومشيباً وشيبةً. قال أبو الحسن بن أبي علي الزَّوْزَنيُّ:

كفى الشيبُ عيباً أنَّ صاحبَهُ إذا أردتَ به وصفاً له قلتَ أشْيب

(الزبيدي، 1305هـ : 328)

ذكر الشيب في القـــــــرآن

ورد في القرآن الكريم على لسان زكريا ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبا** ﴾ (مريم: 4) يتحدث النبي زكريا عن ضعفه مشبهاً بياض شعره باشتعال النار، فالشيب في رأسه كشواظ النار في الانتشار والبياض وقد صحب هذا الشيب وهن في العظم قال الزمخشري إنما ذكر العظم لأنه عمود البدن ، وبه قوامه وأصل بنائه (جلال الدين القزويني، د.ت 191) ، وقال - تعالى- :﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ** ﴾ (الروم 54) ، أي : أن هذه القوة التي عليها الإنسان تعقبها مرحلة ضعف ثم مرحلة أشد من الضعف وهي مرحلة الهرم والشيخوخة التي هي أرذل العمر(الطبري، 1405هـ : 55)

الدلالات النفســـــية للشيب عند الشـــعراء

أكّدت الدراسات وجود ارتباط وثيق بين ظهور الشيب وتعرض الإنسان لظروف عصبية وشعوره بالضغط النفسي، فعند تعرض الإنسان لهذه الظروف تتعرض الخلايا الجذعية المسؤولة عن تزويد جريبات الشعر باللون الطبيعي للتلف وهو ما يسبب الشيب (إيمي نيشيمورا، صحيفة ديلي تلغراف، نشرت على الموقع (aljzeera-net.cdn.ampproject.org). ولا

يستطاب الشيب للمرء، الشيب مبعث للأسى لأنه يُشْعِرُ بدنو الأجل، ويُنذر بنهاية رحلة الحياة، ويبعدُ المحب عن المحبوب، ويثقل القلب بالشوق والحرمان، ولهذا تنتاب المرءَ حالاتٌ من الفزع والخوف والحزن. وقال بعض البلغاء:" الشـــباب أبلغ الشـــفعاء عند النساء وأكثر الرسائل لقلوبهن (الأبشيهي،2005: 231) ، وهو متناثر في أشعار العرب فما " بكت العرب على شيء كما بكت على الشباب" (الأبشيهي، 2005: 231) ، وما حزن الشيوخ على شيء كحزنهم على زهرة شبابهم الذي امتص رحيقها كدُّ الأيام والتعب والشقاء.

إن موضـــوع الشـــيب شـــغل الشـــاعر قديما فهو انعكاس لتجربة وجودية تحتم عليه التعبير عنها والبوح بما يخلد في نفســه تجاه هذه التجربة، وقد تباينت الدلالات النفسـية وتنوعت في قصـــائد الشـعراء وهي تعكس ما تعانيه النفس في هذه المرحلة حين يغزو فيها الشـيب شـعرَ الرَّأس، فقد عبروا عن كرهه وبغضـهم له، ورأوا فيه الموت وأفول زهرة الحياة وإعراض الغواني عنهم حين داهمهم المشـــيب، فعمد بعضـــهم إلى إخفاء الشيب كي يبدو أصغر من عمره، وقد عاب المعري من يخفي شيبه لأن الله أعطاه إياه يقول:(المعري، 1924: 99)

إذا قلت أن الشيب لله صبغة فقد ضل بادي الغي للشيب صابغ

وعدَّ الذي يصبغ شيبه أشبه بالمُزوِّر :(المعري ، 1924: 353)

إذا طلع الشيبُ المُلمُ فحيِّه ولا ترضَ للعين الشَّبابَ المُزوَّرا

كما أن ابن الطوبي يعد الصبغ زوراً يقول (العماد الأصفهاني ، 1966: 63)

خضبت شعرك زوراً والشيب قد فاض فيضا
كذبتَ في كلِّ شيء حتى على الشَّعْرِ أيضا

ويروى أن أصحاب صفي الدين الحلي نصحوه بصبغ شعره فأجابهم: صفي الدين الحلي،2016: 561)

قالوا أخضِبِ الشيبَ فقُلتُ اقصروا فإنَّ قَصدَ الصدقِ من شيمَي
فكيفَ أرضى بَعدَ ذا أنَّني أوَّلُ ما أكذِبُ فِي لحيتي

وقال ابن الطوبي مخاطبا من خضَّب الشيب:(العماد الأصفهاني ، 1966: 61)

رضيت يا خاضب الشيـ ـب خطةً ليس تُرضى
سوَّدتَ منك ثلاثاً وجها وعقلا وعِرضا

لكن بعض الشعراء دافع عن الشيب رغم الألم الذي يختلج وجدانهم، من خلال مقارنة الشيب بالشباب من حيث القيم التي ينطوي عليها كل منهما، فقد استعملوا أشكالا حجاجية متنوعة معتمدة على سلم القيم الذي يؤطره المجتمع ،من خلال خلق منظومة حجاجية متكاملة وفروا لها " مختلف عناصر الخطاب الحجاجي وشروطه من (ادعاء) وإطروحة (اعتراض) نقيض الإطروحة ورفع أوجه الاعتراض بتقديم الحجج المناسبة" (وهابي، 2013) بالعودة إلى المدونة الشعرية نجد الشعراء في دفاعهم عن الشيب قد رسخوا القيم الرفيعة التي يجلها المجتمع وترفع قيمة صاحبها، "وهؤلاء الشعراء هم من عرفوا بتمسكهم الأخلاقي والتزامهم " (مثنى كاظم صادق،2007) أما من كره الشيب وأنكره فهم " الشعراء الذين اشتهروا بمعاقرتهم للخمرة والنساء وقد أنكروه ولم يرحبوا به لأن الشيب يعصف باللذات التي اعتادوها ، فضلا عن كره النساء له في الرجال وإعراضهن عنهم" (مثنى كاظم صادق،2007)

الشـــــــــعر الجاهلي :

لقد عبر بعض شعراء العصر الجاهلي عن كرههم للشيب ، فالشيب يكدِّرُ صفو الحياة اللاهية التي نعموا بصفوها في شبابهم،على أن من الشعراء من رفع قيمة الشيب إذ الشيب يعني أن صاحبه خبرَ الحياةَ بما رأى من صروف الدَّهر وأنَّ الشيب مرحلة الصلاح والتوبة والأوبة إلى الله وقديماً قيل : " الشيبُ حيلةُ العقل وشيمة الوقار، والشيب زبدة مخَّضتها الأيامُ، وفضة سبكتها التجارب سرى في طريق الرشد بمصباح الشيب، عصى شياطين الشباب وأطاع ملائكة الشيب (الحُصَري القيرواني، د.ت: 899) ويُروى أنَّ عبد العزيز بن مروان كان يقول:" من لم يتعظْ بثلاث لم ينته بشيء:

" الإسلام، والقرآن، والشيب (الأبشيهي،2005: 232) فإذا بدأ الشيب يدبُّ في مفرق الإنسان حتَّم عليه أن يستحي ويتعِظَ .

يطالعنا ذو الأصبع العدواني في مقدمة الشعراء الذين ذمَّوا الشيب وأسهبوا في هذا الذم لأنه علامة على الكبر والضعف يقول :(ذوالأصبع العدواني،1973: 33)

أصبحتُ شيخا أرى الشخصين أربعة والشخص شخصين لما مسَّني الكبر
لا أسمع الصوت حتى أستدير له ليلا وإن هو ناغَاني به القمر
وكنتُ أمشي على الرِجْلين معتدلا فصِرتُ أمْشي على ما تُنْبِتُ الشَّجَرُ

فالشيب يحمل في معناه قرب الأجل وترافقه علامات أخرى تبعث الحزن في النفس وتشعر الإنسان بضعفه، فالشاعر يقول إن نظره قد أصابه خللٌ بسبب الكبر وكذلك السمع فلم يعد يسمع إلا إذا استدار لمعرفة مصدر الصوت، وأعلن سلامة بن جندل عن كرهه للشيب فقال:(سلامة بن جندل، 1910، 47)

يا خذُّ أمسى سوادُ الرَّأسِ خالَطَهُ شيبُ القذالِ(1) اختلاطَ الصفو بالكَدرِ

ويقول عـــــدي بن زيد :(عدي بن زيد، 1965: 37)

أرقتُ لمكفهرٍ بات فيه بوارقُ يرتقينَ رُؤوس شيبِ

المكفهر شديد الظلام، يريد أن شعره الأسود قد غزاه الشيب الذي أرقه فلم يستطع النوم بسبب الكآبة والضيق.

أما الأسْود بن يعفر النهشلي فيرى أن الشيب قد جاء بالهرم بعد حسن الشباب ونضارته فيقول: (محمد بن يوسف الحلبي ، 1428هـ : 3435)

بدلت شيبا قد علا لمتي بعد شباب حسن معجب

والمرقش يقول إن الخضاب لا يعيد عهد الشباب ولا أن يعود للنفس طموحها (المرقش،1998: 44)

هل يرجعن ليلا لمتي إن خضبتها إلى عهدها قبل المشيب خضابها

ويعبر عبيد بن الأبرص عن كرهه الشيب وذمه لأنه علامة على الكبر والضعف ودلالة على انتهاء رسالة الإنسان. يقول :(عبيد بن الأبرص،1983 : 24)

إما قتيلا وإما هالكا والشيبُ شينٌ لمن يشيبُ

وأبو كبير الهذلي له أربع قصائد أولها ذكر للشيب الذي لا مهرب ولا مفر منه مطلع القصيدة الأولى :(المعري:1968: 195)

أزهيرَ هل عن شَيبةٍ مَعْدِلِ أم لا سبيلَ إلى الشَّباب الأولِ
أم لاسبيلَ إلأى الشبابِ وذِكْرُهُ أشهى إليَّ من الرحيق السلسل
ذهبَ الشبابُ وفات مني ما مضى ونّضا زهيرُ كريهتي وتبطّلي

مطلع القصيدة الثانية :(المعري، 1968: 159)

أزهيرُ هل عن شيبةٍ من مَقْصرِ أم لا سبيلَ إلى الشبابِ المدبرِ
فقد الشبابَ أبوك إلا ذِكرَهُ فاعجب لذلك فِعلَ دهرٍ واهكرِ
أزهيرَ ويحك ما لرأسي كلما فقدّ الشباب أتى بلونٍ مُنْكرِ
ذهبتْ بشاشتُه وأصبح واضحاً حَرقَ المفارق كالبُراء الأعفرِ

مطلع القصيدة الثالثة : (المعري،1968، 159)

أزهيرَ هل عن شَيبةٍ من مَصرِفِ أم لا خُلودَ لباذلٍ مُتَكلّفِ

مطلع القصيدة الرابعة : (ابن قتيبة، 1423 : 2 /561)

أزهيرَ هل عن شيبة معكم أم لا خلود لباذل متكرم

وأما تأبط شرا فقد جعل عصر الشباب عصر الصَّلاح أما عصر المشيب فهو على النقيض إذ يقول:(تأبط شرا، 1999: 77)

ثم انقضَى عَصرُهَا عني وأعقَبَهُ عصرُ المشيبِ فقُلْ في صالحٍ بادا

ومن رفع قيمة الشـــيب رأى أن الشـــيب علامة على الوقار واكتســـاب الخبرة ، وأن صـاحبه خبر الحياة بما رأى من صـروف الدهر، فهذا أعصـر بن سـعد يخبرنا أن الذي شـيَّبَ شـعرَ رأسـه وحوَّله من البياض إلى السـواد هو تتابع الليالي والأيام واختلاف الأزمنة(ابن قتيبة ، 1423هـ: 106/1)

أعمير إن أباك شيَّب رأسَه كرُّ الليالي واختلاف الأعصر

ويشير بعض الشعراء إلى الشيب الذي يزحف إلى الرأس بسبب المواقف، فعروة بن الورد يعلل ما آلت إليه نفسه من شيخوخة بعد الشباب والنضارة فيقول (عروة بن الورد والسموأل،1982: 18)

لَبِسْنَا زماناً حُسنَها وشبابَها ورُدَّتْ إلى شَعْواءِ والرأسُ أشيبُ

ويري أن الحروب والوقائع التي خاضها كانت سبباً في اشتعال رأسه شيباً . يقول: (عروة بن الورد ، 1982: 48)

فما شاب رأسي من سنين تتابعت طوالٍ ولكن شَيَّبَتْهُ الوقائعُ.

إن هذه الحروب والوقائع وصروف الدهر هي التي شيبت رأس عنترة يقول: (عنترة ، 1981: 178)

تلك الليالي لو يَمرُّ حديثها بوليد قوم شاب قبل المحْملِ

المهلهل يخبرنا أن هذا الحدث المؤلم الذي تعرض له وهو مقتل أخيه كليب كان له الأثر الكبير في ظهور الشيب . يقول: (المهلهل، د.ت: 25)

يا قتيلا نَمَاهُ فَرعٌ كريمٌ فَقْدُهُ قد أشابَ مني المِسَاحَا

ومن الشعراء من رأى أن الشيب علامة الوَقَار والمكانة الرفيعة في المجتمع وهو رادع عن الصبا والجهالة يقول الأسود بن يعفر النهشلي(بدر الدين العيني، 2010: 87)

وأحكمه شيب القذال عن الصبا فكيف تصابيه وقد صار أشيبا

ويعاتب النابغة الذبياني نفسه ويلومها على أفعال الشباب وشهواته بعد أن أدركته علامات الشيخوخة :(النابغة الذبياني،2011: 79)

على حين عاتبتُ المشيب على الصِّبا وقلت: ألمَّا أصْحُ والشيبُ وازعُ

ومالك بن حريم الهمذاني يقول مبينا شدة جزعه علما أنه لم يجزع مما جزع منه الناس وهو الشيب (الأصمعي، 1998 : 61)

جزعتَ، ولم تجزع من الشيب مجزعا وقد فات ربْعيُّ الشَّبابِ فودَّعَا

ولاحَ بياضٌ في سوادٍ كأنَّهُ صُوارٌ بجوٍّ كان جدباً فأمْرعا

بل جعل الشيب دلالة على طول العهد بالحياة يقول:(الأصمعي، 1998: 61)

فإن يك شاب الرأسُ مني فإنني أبيتُ على نفسي مناقبَ أربَعا

العصر الإسلامي والأمـــــوي :

إن الشعور الذي سيطر على شاعر العصر الجاهلي يكاد يكون هو الشعور نفسه لشاعر العصر الإسلامي والأموي، فقد انحصر بين من يبكون الشباب ويتحسرون على انصرام عهده و ما فيه من القوة والفتوة. ينسب إلى الإمام علي -كرم الله وجهه- : (علي بن أبي طالب،2005: 31)

شيئانِ لو بكتِ الدماءَ عليهما عيناي حتى تأذَنا بذهابِ
لم تبلُغا المِعشارَ من حقَّيهمَا فقدُ الشَّبابِ وفُرْقَةِ الأحبابِ

وينسب إليه - أيضا - (علي بن أبي طالب،2005: 129)

فأهلا وسهلا بضيفٍ نازل واستودعَ اللهإلفا رحلْ
تولى الشَّبابُ كأن لم يكُنْ وحلَّ المشيبُ كأن لم يزلْ
فأما المشيبُ كصُبحٍ بَدا وأما الشبابُ كبدرٍ أفلْ.
سقى الله ذاك وهذا معاً فنعمَ المولى ونعمَ البدلْ

زوال الشباب هو زوال النَّضارة والقوة كما يخبرنا كعب بن زهير فيقول متذمرا بهذا الغزو:(كعب بن زهير، 1989: 88)

بانَ الشَّبابُ وأمسى الشَّيبُ قدْ أزِفَا ولا أرى لشّبابٍ ذاهبٍ خَلَفَا
عادَ السَّوادُ بياضَاً في مفارِقِهِ لا مرْحبَاً هَابِذَا اللونِ الذي رَدِفَا

ويعبّر جريرٌ عن حسرته لهذا العهد المنصرم، ويتمنى عودة الشباب، ولو كلفه ذلك أن يدفع أغلى ما يملك، وقد استخدم لو في التمني على سبيل المجاز، بدلا من ليت وهذا ليدل على شدة تحسره على مامضى من شبابه ويدل أيضا على أن عودة الشباب مرة ثانية ليس مستحيلا فحسب بل إنه شديد الاستحالة يقول" (جرير، 1992: 257)

بانَ الشبابُ حميدةً أيامُهُ لو أنَّ ذلك يُشْترى أو يَرْجَعُ

أما شاعر الغزل والمغامرات العاطفية، المحب للحياة ومباهجها عمر بن أبي ربيعة فلا يرحب بالمشيب فالمشيب يخلفه الموت يقول:(عمر بن أبي ربيعة، 2007: 220)

أودى الشباب وأمسى المَوتُ يَخْلُفُهُ لا مرحباً بمَحَلِّ الشَّيبِ إذْ نَزَلا

وجعل الفرزدق الشيبَ هذا الشعر الأبيض يغزو ببطء الشعرَ الأسود فيمحوه، ويحل محله، كما يمحو سوادُ الليل بياضَ النَّهار، وشبهه بتجارة بائرة حيث لايحفل بمن يشتريه فيقول: (الأبشيهي، 2005: 232)

والشيب ينهض في السواد كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار
إن الشباب لرابح من باعه والشيب ليس لبائعيه تجار

وقال : (الفرزدق، 2006 :382)

و الشيب شرٌّ جديد أنت لابِسُهُ ولن ترى خلقاً شراً من الهَرَمِ

وللأخطل (الأخطل، 1994: 78)

هلِ للشَّبابِ الَّذي قد فاتَ مَردودُ أم هل دواءٌ يَرُدُّ الشَّيبَ مَوجُودُ
لن يَرجِعَ الشَّيبُ شُباناً ولن يَجِدوا عِدلَ الشبابِ لَهُم ما أورَقَ العُودُ
إن الشَّبابَ لمحمودٌ بشاشتُهُ والشيبُ منصرفٌ عنهُ ومصْدودُ

أما عمرو بن زيد فلا يري في الشيب إلا رزانة :(البحتري، 2007: 387)

الشيب حلم راجح ورزانة فيه تجربة لمن قد جربا

الشعراء العباسيون :

ويستمر التأسف والبكاء على عهد الشباب الراحل وتمني عودته يقول أبو العتاهية (أبوالعتاهية، 1986: 46)

بكيتُ على الشَّبابِ بدَمعِ عَيْني فلم يُغْنِ البُكاءُ ولا النحيبُ
فيا أسفا أسِفتُ على شبابٍ نَعاهُ الشيبُ والرأسُ الخَضِيبُ
عَريتُ مِنَ الشباب وكان غضاً كما يَعْرَى من الوَرَقِ القَضِيبُ
فياليت الشبابَ يعودُ يوما فَأُخْبِرَهُ بما صَنعَ المَشيبُ

ويتمنى صريع الغواني لو أسعفه الصبا فأقام معه قليلا يقول:(صريع الغواني، د.ت، : 54)

واهاً لأيام الصِّبا وزمانه لو كان أسْعف بالمُقام قليلا

وهذا أمر مستحيل وفيه تحسر وجزع من الشاعر على تلك الأيام. ويستمر تذمر دعبل وسخطه من الشيب الذي غزا شعره حتى جعله قليل الضحك ، فقد كان يضحك في شبيبته فأتى الشيب فقلما ضحكا، يقول:(دعبل الخزاعي، د.ت: 95)

لاتعْجَبي يا سلْمَ من رجلٍ ضَحِكَ المشيبُ برأسِهِ فَبَكَى
قد كان يضحك في شبيبتِه فأتى المشيب فقلما ضحكا

وجعل المعتمر بن سليمان الشيب أول مراحل الموت يقول: " الشيب أول مراحل الموت " وقال السهمي :" الشيب تمهيدُ الحِمَامِ" (الجاحظ ،1993 : 669)، ونجد أبا تمام يذم الشيب وبسبب معاناته منه يجعله القوة التي تقهر الحياة، وتحطم الشباب ، والمرض الذي يواسي فيه العوَّادُ مريضَهم (أبو تمام، ، 1981: 347)

غدا الهمُّ مُخْتَطًّا بِفَوَدَيّ خِطَّةً طريقُ الرَّدى منها إلى الموت مَهْيعُ
هو الزَّورُ يُخْفَى والمُعاشِرُ يُجتوى وذو الإلفِ يُقلى والجديدُ يُرَقَّعُ
له منظرٌ في العين أبيضُ ناصعٌ لكنَّهُ في القلبِ أسودُ أسْفَعُ

ورغم عيوب الشيب فكثير من الشعراء أجلَّه واحترمه ووضعه في موضع حسن، من باب تحسين القبيح، فقد جعل الفلاسفة والمسلمون ومن بينهم حازم القرطاجني(2) من "مهمة الشعر تحسين القبيح" من ذلك أبيات دعبل الخزاعي(دعبل الخزاعي، د.ت : 92)

علمٌ وتحكيمٌ وشيبُ مَفَارِقٍ طَلَّسنَ ريعانَ الشَّباب الرَّائقِ

ومن الذين دافعوا عن الشيب أبو العلاء المعري فقد أضفى عليه قيمة جمالية ورفع منزلته إذ جعله كأضواء النهار وكاللؤلؤ وثغر الحبيب يقول (المعري، 1957: 259)

خَبرينِي ماذا كَرِهْت ِمن الشَّيبِ فلا علمَ لي بذنبِ المَشِيبِ
أضياءَ النَّهارِ، أم وضح اللؤلؤ أم كونهُ كثغرِ الحبيبِ؟

وهو عند علي بن الجهم هيبة ووقار :(علي بن الجهم، د.ت: 139)

لا يرعك المشيب يابنةَ عبدالله فالشَّيبُ هيبةٌ ووقَارُ
إنما تَحْسُنُ الرِّياضُ إذا ما ضَحِكَتْ من خلالِها الأنْوارُ

ويقرنه دعبل الخزاعي بالحكمة والعلم ويضفي عليه الصفات المحمودة يقول:(دعبل الخزاعي: 24)

إن المشيب رداء الحلم والأدب كما الشباب رداء اللهو واللعب
تعجبتْ أنْ رأتْ شيبي فقلتُ لها لا تعجبي، مَنْ يطلْ عمر به يَشِبِ
شيبُ الرجال له زينٌ ومكرمةٌ وشيبُكنَّ لكنَّ العارُ فاكتئبي

ويرحب أبو فراس بالمشيب: (أبوفراس، 2005: 14)

رأيت الشَّيبَ لاحَ فقلتُ أهلا وودعتُ الغَوَايةَ والشَّبابا
وما إن شبْتُ مِن كِبرٍ ولكنْ رأيتُ من الأحبةِ ما أشَابَا

أما ابن الرومي فقد لبس رداء المشيب وعلته أبهة وكبر جعلت الغواني يدعونه عَمَّاً ما جعله يمتلئ غما، وإذا دعونه أبا حسب ذلك سباً، وتلك منهن دعوة إجلال لم تلق استحسانا عند ابن الرومي وإنما هي إخلال وكان بوده أنْ يُعَوَض عنها بلقب فيه تقرب منهن يقول (ابن الرومي، 1993: 132)

أصبحتُ شيخا له سَمْتٌ وأُبَّهةٌ يدعونني البيضُ عمَّا تارةً وأبا
وتلك دعوةُ إجلالٍ وتَكْرِمةٍ ودِدتُ أنّي معتاضٌ بها لَقَبَا

وعند أبي تمام الشيب علامة على اكتمال العقل وهو ابتسامة للرأي والأدب نجده يخاطب حبيبته التي راعها أن ترى القتير (3) يعلو رأسه رغم حداثة سنه فيقول لها:(أبوتمام ، 1981 :47)

فأصْغِري أنَّ شيبا لاحَ بي حدَثا وأكْبَرِي أنني في المَهْدِ لم أشِبِ

ولا يُؤرِّقُكَ أيماضُ القتيرِ به فإن ذاكَ ابتسامُ الرَّأي والأدبِ

ويصف ابن دريد الشيب بسقم غير مؤلم فيقول:(ابن دريد، ديوانه، 1995: 84)

هو السقمُ إلا أنَّه غيرُ مُؤلم ولم أرَ مثلَ الشَّيبِ سقماً بلا ألمِ

ولا يتأسف ابن المعتز بمضي الشباب و مجيء الشيب:(ابن المعتز، د.ت : 29)

مضى من شبابك ما قد مضى فلا تكثرن عليك البكا

الشريف المرتضى (4) اعتبر أن الشيب فضح سنه الحقيقي الذي اجتهد في إخفائه ما جعل عدوه يتشفى منه ويغيظه، وبل حتى ذنوبه التي صفح عنها أصحابها تراجعوا عن صفحهم ، هذا الشيب قد طير شعره بعد أن سال حتى ضاقت جبهته وجعله محسورا عن جانبي رأسه، ما جعله يعشق الليل الذي يرمز به إلى الشعر الأسود ويكره الصبح الذي يرمز إلى الشيب والذي فضحه. (الشريف المرتضى، : ج2 ،543)

فضح الشيبُ شبابي فافتَضحْ ونكا قلبي به ثم جَرَحْ
جدَّ لي من بعد مزجٍ صبغُهُ وركوبُ الجِدِّ من كان مَزَحْ
فاشتفى مني عدوي واكتفى ورأى كلَّ الذي كان اقترحْ
وذنوبٌ كُنَّ لي مغفورةً عاد فيها كلُّ من كان صَفَحْ
كلما ناديتُهُ نحوي مضى وإذا قلتُ دنا مني انتزحْ
والذي طيّرَ عنّي غُمَمِي حين وافى حَلَّهُ بعدُ جلَحْ
فاعجِبوا كلكُمُ منّي إذنْ أعشقُ الليلَ ولا أهوى الصُّبُحْ

وكان وقع الشيب شديدا على المتنبي الذي غزاه وهو لايزال صغيرا لم يتعد العشرين (المتنبي، 1999: 220)

ضيف ألم برأسي غيرَ مُحتشم والسيفُ أحسنُ فِعلا منه باللِمَمِ
إبْعَدْ بَعِدتَ بياضاً لابياضَ له لأنتَ أسودُ في عَيْني مِنَ الظُّلَمِ
بحُبِّ قاتِلَتِي والشيبِ تَغْذِيَتي هواي طِفلاً وشَيبي بالغَ الحُلُمِ

بل يذكر أنه بكى على فراق الشباب قبل نزول المشيب عندما كان شعر رأسه أسود ولماء وجهه رونق لعلمه بزوال الشباب وخوفه من فراقه: (المعري، 1992 :106)

ولقد بكيتُ على الشباب ولُمَّتي مُسْــودَّةٌ ولماء وجهي رونقُ

والشريف الرضي يجعل من الشيب الداء الذي يمنع الهوى حيث سطوة الشباب وما يتبعها من تصابي ولهو، فارقهما بفراق الشباب حين وقع أسير الشيب: (الشريف الرضي، 1999: 501)

أراعي بلوغَ الشَّيبِ والشيبُ دائبا وأفني الليالي، والليالي فنائيا
وما أدَّعي أني بريءٌ من الهوى ولكِنَّني لا يعلمُ القومُ ما بيَا

ويعتمد البحتري على تقنية حجاجية وهي المقارنة بين المرحلتين فالشباب هو المتعة والجمال التي يقضي عليها الشيب،فالشيب هو إدبار للمتعة والليالي الجميلة يقول البحتري: (البحتري،1980: 54)

رُبَّ عيشٍ لنا بِرَامَةَ رطْبٍ وليالٍ فيها طِوالٍ قِصارِ
قبلَ أنْ يُقبِلَ المشيبُ، وتغْدُو هفَواتُ الشَّبابِ في إدْبارِ
كلُّ عُذْرٍ من كلِّ ذنْبٍ، ولكنْ أُعْوِزَ العُذْرُ مِنْ بياضِ العِذَارِ
كان حُلوًا هذا الهوى، وأراهُ عَادَ مُراً والسّكرُ قبلَ الخُمارِ

كما أن الشيب عنده زاجر للفتى عن التصابي والكف عن العشق مادام العشق مع الشيب ذنبا لايغتفر (البحتري، ج2، 1980: 308)

في الشيبِ زجرٌ لهُ، لو كان ينزَجِرُ وبالغٌ مِنهُن لولا أنَّهُ حَجَرُ
ابيضَّ ما أسودَّ من فَودَيهِ ، وارتجعتْ جَلِيَّةُ الصُّبح ما قَدْ أغْفلَ السَحَرُ
وللفتى مُهلةٌ، في الحُبِّ، واسعةٌ مالم يَمُتْ في نواحي رأسِهِ الشَعرُ
قالتْ مَشيبٌ وعشقٌ أنتَ بينهُما وذاكَ في ذاكَ ذنبٌ ليس يُغْتَفَرُ

إن تقبل المرء للشـــيب ليس بالأمر الهين ولذا يعيش الشـــاعر صـــراعا بين القبول والترحيب به وذمه والنفور منه، لذا نجد البحتري متذبذباً في شعوره تجاه هذا الضيف الذي يغزو الرأس فجأة؛ فيحاول قبوله وتحسينه فيجعل بياضه في الرأس إزالة للسواد الذي كان يمنع الشباب من الظهور في أبهى صورة يقول (البحتري، ج2، 1980: 187)

لا تُرِيهِ عَارًا فما هو الشَّيْـ ـبِ، ولكنَّهُ جَلاءُ الشَّبابِ

ويقول: (البحتري، 1963: 2/ 1331)

طَوتني بناتُ الدَّهرِ من كُلِّ جانبٍ وللدَّهرِ وقعٌ يترُكُ الرأسَ بَلْقَعَا
وقد كنتُ وقَّادَ الشَعِيلةِ شارِخاً أحدَّ مِنَ العَضبِ الحُسامِ وأقْطَعَا
فأصبحتُ كالريحانِ أذبَلَهُ الظَما ووَدَّعتُ ريْعَانِ الشَّبابِ فودَّعَا

وابن الرومي يستقبل الشيب مسلما ومرحبا به فهو هادئ المخطي إلى جادة الصواب (ابن الرومي 1993 : 167)

وقلت مسلما للشيب أهلا بهادي المخطئين على الصواب
ألست مبشري في كل يوم بوشكِ ترحُّلي إثر الشَّبابِ
لقد بشرتني بلحاق ماض أحبَّ إليَّ من برْد الشرابِ

ويعتمد ابن المعتز البنية الحجاجية وفق هرمية القيم فيبين أنه كان منساقا وراء قيم الشباب ونزواته حيث كان قلبه منصرفا عن التقوى ،متناسيا للموت الذي ينتظره، والذي يفرض عليه أن يعمل لأخرته بنهج طريق التقى والعقل وهجران لذات الشباب ونزواته التي تخفى تحت ظلماتها القاسية سراج الرشد.(ابن المعتز، 1891:59)

صاح بالوعظ شيب رأس مضى حثني نلتقي وقلبـي بطـي
وأراني وجه المنية من قر ب، ولكنني عليها جـري
سحرتني الدنيا، وعادات لذا تي، فجسمي كهل، وقلبي صبي

أصرع العقل بالهوى، فسراج الـ ـرشد، من تحت، بالظلام خفي
تركتني عين الخلي لما بي وتمطَّـــى عليَّ ليـــلٌ قسي

لكن أبا نواس كان يدعو إلى اقتناص اللذة وينصح الشباب بأن يستغلوا أيامهم ويعيشوا وقتهم قبل أن يداهمهم المشيب (أبونواس،1984: 149)

بادر شبابك قبل الشيب والعار وهزهز الكأس من بكر لإبكار

شعراء الأندلس

يقف شـــعراء الأندلس من الشيب نظرة مغايرة، نظرة ملؤها الوقار والبهاء والجمال استمد شاعر الأندلس صورها من الواقع يقول ابن عبدربه كاشفا عن سأمه من التصابي ورضاه بالمشيب(ابن عبدربه، 1993: 97)

بدا وضحُ المشيب على عِذاري وهل ليلٌ يكونُ بلا نهارِ
وألبَسَني النُّهى ثَوباً جديداً وجرَّدَني من الثوبِ المُعَار
شَريتُ سوادَ ذا بياضِ هذا فبدَّلتُ العِمامةَ بالخِمارِ
وما بِعْتُ الهوى بَيعاً بشرطٍ ولا استثنيتُ فيه بالخِيارِ

ويقول إن الشيب نذير الموت وأنه أصدق زاجر لنا (ابن عبدربه، 1993 : 90)

ألا إن القتيرَ وعيدُ صدْقٍ لنا لو كان يرجرنا القتيرُ
نذيرُ الموت أرسله إلينا فكذبْنا بما جاء النذيرُ

وعبر ابن خفاجة عن كرهه للشيب : (ابن خفاجه ، 2006: 66)

وقلت: الشيبُ للفتيان شينٌ كفى الأحداثَ شيناً أن تشيبا

وعنده غراب يصيحُ خيرٌ من حمَامٍ ينذرُ يقول (ابن خفاجة ، 2006 :66)

فأحسنُ من حمام الشيب عندي غُرابُ شبيبةٍ أَلِفَ النعِيبا

أما ابن بطال فيؤكد أن الشيب منحة وهدية وبناء عليه أخذَ على عاتقه أَخْذَ الحق له يقول :(أبو عبدالله الكتاني الطبيب، د.ت: 255)

ما للمشيب وللجهول العائب كم بين صبح طالع وغياهب
وجه النهى أبدى الفؤاد وكان قد قام الشباب له مقام الخاضب
فمتى تعيره الخضاب فإنه نور المعاني تحت خط الكاتب
فكأنما رأسي سماء تجارب قد زُينت من شيبة بكواكب
فكأنما طلعت لعيني حاسد ببياض هماتي وسود مطالبي

فهو يرى أن الشيب أصل المرء، الشباب خضاب له ولابد لهذه الصبغة أن تزول أمام نجوم المشيب وكواكبه التي أراد الله أن تكون رجوما لحساده من شياطين الإنس والجن، ويصور ابن درَّاج القسطلي في شعره المشهدين: شبابه الذي كان معنياً فيه باللهو والمجون والتعرض للغواني، أيام كانت الحياة مستطابة له، ومشهد الشيب الذي منحه صورة مغايرة لمن تذمر منه، فالشيب عنده يعني الأطايب التي تضيء طرق الهدى بعد أن ردَّ أردية اللهو بعضها على بعض إبان نشر أردية الرزانة والوقار.
يقول :(ابن دراج، 1961: 15،16)

أنضيتُ خيلي في الهوى وركابي وعمرْتُ كأس صِبا بكأس نِصابِ
وعُنيتُ مُغْرىً بالغواني والصبا واللهو واللذاتِ قد تُغْرِي بي
في غَمرة لا تنقضي نشواتها من صَرْف كأس أو جُفونِ كعابِ
أيامَ وجه الدَّهرِ نحوي مشرقٌ ومحاسنُ الدنيا بغير نقابِ
ولقد أضاء الشَّيبُ لي سُنَنَ الهُدى فثنَى سِنِي دَدَني على الأعقاب
ورأيت أردية النُّهى منشورةً تسعى بجدَّتها إلى أترابي
ورأيتُ دارَ اللهو أقوى ربْعُها وخَلَتْ معاهِدُها من الأحباب

واعتمادا على هرمية القيم يشير الشاعر إلى قيم تضفي مهابة إلى الشخصية لأن الشيب

مرتبط بقيم أجل من اللهو وأبقى من الشباب وقد تكون هذه القيم البديلة مختزلة في الشجاعة وخوض غمار الحروب كما في قول ابن خفاجة: (ابن خفاجه ، 2006 : 302)

فإن غاضتِ الأيامُ ماءَ شبيبتي ومالتْ بغُصنٍ، من قَوامي ناعمِ
لقد طال صدرُ الرِّمحِ منِّي بهمَّةٍ تَهُزُّ بها العلياءُ صفحةَ صارمِ

ويبدي ابن هاني الأندلسي في مقدمة إحدى قصائده تأسفه وحزنه عن أيام الشباب التي انقضت ومحا المشيب متع الشباب ولذاته التي كان يحياها و يركبها دون تصنع أو تكلف على خلاف المشيب الذي حتم عليه أن يتكلف في خوضها فجعل ذكر الغانيات خطرة عابرة تحضر في الخيال، سرعان ما تتبدد عندما يتذكر الشاعر شيبه وإيجاف السنين بأيامه(ابن هاني، 1980: 202)

قد سار بي هذا الزمان فأوجفا ومحا مشيبي من شبابي أحرُفَا
إلا أكنْ بلغْتُ بي السِّنُ المدَى فلقد بلغْتُ من الطريق المَنصفَا
فأما وقد لاحَ الصباحُ بلمَّتي وانجابَ ليلٌ عمايتي وتكشَّفا
فلئن لهوتُ لألهوَنَّ تصنُّعاً ولئن صبَوتُ لأصْبُونَّ تكلُّفاً
ولئن ذكرْتُ الغانياتِ فخَطرةٌ تعتـــادُ صَبًّا بالحِسَانِ مُكلَّفا

موقف الزوجات والغواني

نظر كل شاعر إلى الشيب من زاويته ولكنهم جميعا صارعوا حالات شعوريه معينة كانت الأنثى على هرمها . في شعر الشيب يبرز الحوار الذي يقتضيه مجرى الحديث عن الذكريات الراحلة وأيام الشباب الزائل ، والشعور المفعم بالأسى والحسرة " ليعوض الشاعر بذلك عن إعراض المرأة عنه حين اشتعل الرأس شيبا" (صاحب خليل إبراهيم ، 2015: 44) ومن هنا يتمرد الشاعر على شيخوخة أطفأت زهوة أيامه ، فحاول ألا يستسلم لها وأن " يفتح كوة ليطل منها الفخر مستذكراً ومذكراً ما حفلت به حياته من مغامرات تارة ثانية هادفاً إلى تحقيق معادلة الحالة السلبية التي يعيش فيها، لينتهي إلى تقرير حقيقة أو حكمة يستدعيها موقفه من الحياة" (صاحب خليل إبراهيم، 2015: 44)

الشعراء الجاهليون :

الشباب أبلغ الشفعاء عند النساء، يأسر قلوبهن، ويملأ حياتهن بهجة ودلال، أما انتهاء الشباب وظهور الشيب فقد كان مدعاة للهجران والنفور، فهذا علقمة ينقل لنا خبرته بأحوال النساء حين الشباب وحين يشيب شعر الرأس أو يقل المال : ويقول علقمة الفحل (علقمة، 1935: 11)

وإن تسألوني بالنساء فإنني خبيرٌ بأدواء النساء طبيبُ
إذا شاب رأس المرءِ أوقلَّ مالُهُ فليس له في ودِّهنَّ نصيبُ
يُرِدْنَ ثراءَ المالِ حيث علمْنَه وشرخُ الشَّباب عندهِنَّ عجيبُ

أما عنترة فيجعل الشيب من الذنوب التي لا تغتفر عند محبوبته يقول :(عنترة، 1981: 99)

ذنبي لعبلة ذنبٌ غيرُ مغتفرِ لمَّا تبلَّجَ صُبحُ الشَّيبِ في شَعَري

يصرح الأعشى بأن الغواني لا يواصلن من فقد الشباب (الأعشى،2005 :77)

وأرى الغواني حينَ شِبْتُ هجرنَني أنْ لا أكون لهُنَّ مِثلي أمْردا
إن الغواني لا يُواصِلْنَ امْرَاً فَقَدَ الشَّبابَ وقَدْ يَصِلْنَ الأمْردَا

ويعترف بأن حبيبته قد أنكرته ولم تعد تعرفه فصدت عنه لشيب وصلع ألمَّا برأسه (الأعشى، 2005: 117)

وأنكرتني وما كان الذي نَكِرَتْ مِنَ الحوادثِ إلا الشَّيبَ والصَّلعَا

الزوجة تكره أن ترى المشيب في رأس زوجها وأنه يبعث عندها السأم والملل منه أراهن لا يحببنَ من قلَّ مالُهُ ولا مَنْ رأين الشيبَ فيه وقوَّسا (امرؤ القيس ، 2004: 112) ويصور الشاعر الأسود بن يعفر حالته وهو في مرحلة الصبا وما بها من مرح ولهو، فقد كانت الغواني تستقبله وترحب به في كل وقت ، أما في شيخوخته فقد هجرنه بل فقد فيها حتى السؤال عنه يقول (بدر الدين العيني، 146:2010)

صحا سُكرٌ منه طويلٌ بزينبا تَعاقَبهُ لما استبان وجرَّبا
وأحكمه شيبُ القَذالِ عن الصِّبا فكيف تصابيه وقد صار أشيبا
وكان له فيما أفادَ حلائلٌ عجلنَ إذ لاقينهُ قلنَ مرحبا
فأصبحنَ لا يسألنهُ عن ما به أصَعَّدَ في علو الهوى أمْ تصَّوبا

أما زهير بن أبي سلمى فيخبرنا أنه ترك الصبا بعد أن ذهب الشباب، وكف عما كان قد عهدته منه سلمى وأخبرنا أن العذارى قد دعته بالعم لكبره (زهير بن أبي سلمى،1964: 64)

صحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطلُه وعُري أفراسُ الصِّبا ورواحلُه
وأقصرتُ عمَّا تعلمين وسُدِّدتْ عليَّ سوى قَصْدِ السبيلِ معادِلُه
وقال العذارى إنما أنت عمُّنا وكان الشباب كالخليط نزايلُهْ

وبادر عرقلة الكلبي إلى ترك النساء والخمر وتاب بعد أن شاب شعر رأسه ورأى أن مسلك حياة الصبا والشباب لم تعد تناسب ما آل إليه يقول:

وقد أنساني الشيب الغواني فلا سُعْدى أريد ولا سعاد ا
(عرقلة الكلبي، 1992 : 31)

وعبيد بن الأبرص قد هجرنه الغواني حين علا الشيب لمته : (عبيد بن الأبرص:

وقد علا لمتي شيب فودعني منه الغواني وداع الصارم القالي

الشعر الإســـــلامي والأمـــــوي

ولا تختلف نظرة النساء للشيب في الشعر الإسلامي والأموي عن شعر عصر ما قبل الإسلام، فقد رأين فيه الفتور والملل والإعلان بزوال الشباب، وقد اعترف عمر بن أبي ربيعة بإعراض الغواني وصدهن عنه(5): عمر بن أبي ربيعة، 2007: 151)

رأينَ الغواني الشيبَ لاحَ بعارضِي فأعرَضنَ عَنِّي بالخُدود النَّواضرِ
وكنَّ إذا أبصَرْنَنِي أو سَمَعْنني سَعَينَ فرقَّعنَ الكُوى بالمحاجرِ
فإني من قومٍ كريمٍ نجارُهُم لَأقدامِهم صيغتْ رؤوسُ المنابرِ

وعبيد الله بن قيس الرقيات يتحدث عن لوم العواذل اللاتي يلومنه على لهوه وقد كَبُرَ وغزا الشيب رأسه يقول:(عبيدالله بين قيس الرقيات،د.ت : 66)

بكرتْ عليَّ عواذلي يلحينني وألومُهُنه
ويَقُلنَ شيبٌ قد علا ك وقد كَبِرتَ فقلتُ إنه
إن العواذل لُمْنني ولن أطيعَ أُمورَهنه

الشعراء العباســــــــيون

ويكابد الشاعر العباسي ألم زوال الشباب الذي يُعدُ الشباب أبلغ الشفعاء عند النساء، فالنساء يؤثرن ما يضاهيهن جمالا ، وفي الشباب دل وطراوة تأسر قلوبهن، وتملأ حياتهن بهجة ودلال ،. يقول أبوتمام (أبوتمام ، 1981: 176)

أحلى الرجالِ مِنَ النِّساءِ مواقِعَا مَنْ كان أشبَهَهُم بهنَّ خُدُودَا

ويؤكد عيوب الشيب فيقرنه بالموت ، لقد صير هذا الشيب ما كان من حسنات عند النساء سيئات يقول: (أبوتمام،1981: 67)

كلُّ داءٍ يُرْجَى الدَّواءُ له إلا (م) الفظيعَينِ: ميتةً ومَشِيباَ
يا نسيبَ الثَّغَامِ ذنبُك أبْقى حَسَناتي عند الحِسانِ ذُنُوبا
ولئنْ عِبنَ ما رأيْن لقد أنــ (م) ـكرن مُسْتنكرًا وعِبْنَ مَعِيبَا

ويقول الشريف المرتضى(6) (الشريف المرتضي، 1997: 354)

هل الشيبُ إلا غُصَّةٌ في الحيازم وداءٌ لربَّاتِ الخــدودِ النَّواعِمِ
يَحِدْنَ إذا أبصرْنَهُ عــن سبيلِهِ صُدودَ النَّشاوى عن خبيث المطاعِمِ

تعمَّمتُهُ بعد الشبيبةِ ساخطاً فكان بياضُ الشّيبِ شــرَّ عمائمي
وقُنِّعْتُ منه بالمخوفِ كأنَّني تقنَّعتُ مـن طاقـاتِهِ بالأراقِـمِ
وهيَّبَنِي منه كما هَابَ عائجٌ على الغابِ هيباتِ اللَّيوثِ الضَّراغِمِ
وهددني في كلّ يومٍ وليلةٍ سنا وَمْضِهِ بالقارِعاتِ الحواطِمِ
كفاني عُذَالي على طَرْبَةِ الصّبا وقام بلومٍ عِفْتُهُ من لوائمي
وقصر عمّي باع كلّ لذاذةٍ وقصَّر دوني خطو كلّ مُخالِمِ
فوالله ما أدري أصُكَّتْ مفارقي بفِهْرِ مشيبٍ أو بفِهْرِ مُراجِمِ

ويطلب ابن المعتز وصــل محبوبته بتذلل، لكن الشــيب يمنعها فلا تســتجيب لوصــاله فظللتُ أطلبُ وصــلها بتذلل والشــيبُ يغمزها بأن لا تفعلي (الأبشــيهي، 2000: 463) ؛ بل وينعته بظلمة القلوب، فلا غوان يرغبنه ولا عذر في اقتراف الذنوب: (ابن المعتز،د.ت: 85)

من يشتري مشيبي بالشَّعَر الغريب
من يشتري مشيبي وليس بالمصيب
نورَ الرؤوس واللحى وظُلمة القلوب
أين الغواني والصبا والعُذرُ في الذنوب

ودافع الخليفة العباسي المستنجد بالله عن مشيبه مخاطبا حبيبته التي عيرته ببزوغ الشيب في رأسه فجعل الشيب مصدر قوة، جلُّه محاسن، فإن رأته محبوبته عارا فإن الشاعر يراه وقارا. يراه وقارا (جلال الدين السيوطي، 1970: 347)

عيرتني بالشيب وهو قار ليتها عيرت بما هو عار
إن تكن شابت الذوائب مني فالليالي تزينها الاقمار

وقال شاعر آخــــــــر) ألف ليلة وليلة2/ 296)

سألتها قبلةً يوما وقد نظرتْ شيبي وقد كنت ذا مال وذا نعم
فأعرضت عن مرامي وهي قائلةٌ لا والذي خلق الإنسان من عدم
ما كان لي في بياض الشيب من أرب أفي الحياة يكون القطن حشو فمي.

شـــــــــــعراء الأندلس :

يُعرض ابن عبدربه بالغواني اللائي نفرن من شيبته موضحا عمايتهن فكما أنه لابد من نهار لليل كذلك لا دوام لسواد الراس بل لابد من بياض الشيب (ابن عبدربه، 1993: 97)

بدا وضحُ المشيب على عذاري وهل ليل يكون بلا نـهار
والبسني النـهى ثوبا جديدا وجرَّدني من الثوب المُعار
شريتُ سواد ذا بياض هذا فبدلتُ العِمامةَ بالخمارِ
وما بعتُ الهوى بيعاً بشرطٍ ولا استثنيتُ فيه بالخيارِ

فهو اشترى سلعة ينبذها الناس (الشيب) بسلعة يلهث خلفها الكثير، سواد الرأس، والشباب في نظره ثوب الطيش والحمق، بخلاف المشيب فإنه ثوب النهى والوقار، ويتعجب الشاعر من إنكار الحسان للمشيب

رأت طالعا للشيب بين ذوائبي فباحت بأسراب الدموع السواكب
وقالت أشيب؟ قلت: صبح تجارب أنار على أعقاب ليل النوائب
(المقري التلمساني، د.ت: 94.)

وعبد الله مصادق الذي هجرت قلبه الغواني، بعد أن رحل الشباب وصار أشيب، لكنه أخذ في بيان قيمة الشيب في نظره فهو نبع الفكاهة ومعدن الطيب والفتاءة مستعينا بالطبيعة ، فلم يترك عندئذ في نفس الخصم أي مجال لرفع بصره فيه.
يقول:(المقرى التلمساني،د.ت:436)

صارمته إذ رأت عارضَهُ عاد من بعد الشباب أشيبا
قلتُ ما ضرك شيب فلقد بقيت فيه فكاهات الصبا
هو كالعنبر غال نفحهُ وشذاه أخضرا أو أشهبا

والحقيقة أن الشّـــيب لم يكن مكروها وغير مرحب به عند الرّجال فقط ؛بل هو لا مرحب به لدى الرجال والنساء على السواء ولعلّ قول هــذه الشاعرة التي تخاطب شيبة لمحتها في شَعْرِهَا خير دليل على ذلك

تقـــــــول:

لا مرحبا غافلتني دون أن أدري ... يا شيبة أسفرت تختال في شعري
أفي الصبا في ربيع العمر وألمي ... الآن ماذا تركتِ لآخر العمر
خمس وعشــرون كالأحلام أحسبها ... مرت فأواه للعمر الذي يجري
عن طفلة كنتها كالحلم أتبعها ... أخال كل الذي يسعى لها إثري
ردي لعيدي الطفولة لا مذاق له ... بدونها وأرجعيني طفلة العشر.

الخاتمـــــــــــة :

لقد تباينت نظرة الشعراء إلى الشيب فهو وإن كان مبعثا للأسى؛ لأنه يشـــعر بدنو الأجل، وينذر بنهاية رحلة الحياة، ويبعد الحبيب عمَّن أحبَّ، وهذا يُشعر بالحرمان، ولهذا انتابت الشاعر حالات حزن تفصح عن معاناته وهمومه.

غير أن بعض الشعراء رفعوا مكانة الشيب فجعلوه وقارا ومنحة وهدية إلى الصلاح وأنه ثوب النهى والوقار وبالنظر إلى "المدونة الشعرية نجد الشعراء حاولوا الدفاع عن الشيب من خلال مقارنته بالشباب، من حيث القيم التي ينطوي عليها كل منهما، حيث البنية الحجاجية تتأسس على (هرمية قيم) تحاول الدفاع عن القيم الأفضل ، هكذا نجد الشباب الذي كثيرا ما يحبذه الناس يشمل قيم النزق والانسياق وراء الشهوة والضلال أما الشيب فعلى النقيض من ذلك يرسخ في الفتى قيما عليا يجلها المجتمع و يرفع قيمة صاحبها" إن الدفاع عن الشيب و ربطه بالفضيلة والقيم الأخلاقية عند الشعراء يؤكد أن الشعر العربي لم يكن مقرونا بمحاكاة الذوات والمحسوسات كما وصمه ابن سينا في مقارنته بين الشعر العربي والشعر اليوناني فربط الشعر اليوناني بالفضيلة وهو ما أكده ابن رشد عندما نقل عن الفارابي أن الشعر العربي تمحور حول النهم والكدية فقال " أكثر أشعار العرب إنما هي كما يقول أبونصر في النهم والكدية وذلك أن النوع الذي يسمونه (النسيب) إنما هو حث على الفسوق ولذلك ينبغي أن يتجنبه الصبيان" وكل هذه الآراء وهذا الموقف تأثر بنظرة أفلاطون إلى الشعر الغنائي الذي قال عنه : " تتحكم فيه العواطف ويطلق فيه الشاعر العنان لأهواء النفس ونزواتها الفردية التي ربما تقود

إلى التحريض ضد الآلهة وتحض على الخروج عن قيم الفضيلة والخير ، وتشجع على التراخي وإضعاف إرادة الفرد وهمة الرجال." plato, Republic, Book 3,para,380)

إن ما سبق من تحليل يؤكد تجاوز المقدمة الغزلية للمشاعر الحسية تجاه المرأة، حيث شكل الشيب منطلقا لصياغة موقف الشاعر من الحياة، حيث الهاجس الأخلاقي كان هما مؤرقا في حجاج الشيب عند الشاعر وهو ما من شأنه أن يعطي قيمة لسؤال الأخلاق في العقل العربي.

الهوامـــــــــــــش:

1- الأخطل، ديوانه، دار الكتب العلمية، بيروت ط2، 1994
2- الأصـمعي، الأصـمعيات، تقديم وشـرح وتعليق محمد حمود،دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1998
3- الأعشـى الأكبر، ديوانه، اعتنى به وشـرحه عبدالرحمن المصـطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2005.
4- امرؤ القيس، ديوانه، اعتنى به عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2005.
5- إيمـي نيشـيمورا، صـحيفـة ديلـي تلـغراف، نشـرت علـى الموقع -aljzeera net.cdn.ampproject.org)).
6- البحتري، ديوانه، المجلد الثاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980
7- البحتري، ديوانه، ج2، المعارف، القاهرة، 1963.
8- البحتري، الحماسـة، تحقيق محمد إبراهيم خور- أحمد محمد عبيد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارت العربية المتحدة، 2007.
9- بدر الدين بن موسى العيني، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية المشهور ب (شرح الشواهد الكبرى) تحقيق علي محمد فاخر وآخرين ، دار السلام ، القاهرة ،ط1 ، 2010.
10- تأبط شراً، ديوانه، جمع وتحقيق وشرح علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي ، د.ب،ط2، 1999.
11- أبو تمام، ديوانه، ضبط معانيه وشرحه إيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني ، بيروت،ط1، 1981.
12- الجاحظ، البيان والتبيين،ج2، تحقيق وشرح حسن السَّندوبي ، أشرف على تصحيحه وطبعه مصطفى القصاص ، دار إحياء العلوم ، بيروت،ط1 1993.
13- جرير ، ديوانه، شـرحه وقدم له مهدي محمد ناصـر الدين ، دار الكتب العلمية، بيروت،ط2، 1992.
14- جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، 1970.
15- جلال الدين القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت.
16- الحصـري،زهر الآداب، تحقيق علي محمد البيجاوي ، دار إحياء الكتب العربية عيسـى البابي الحلبي، ج2، ط2، د.ت.
17- ابن خفاجة، ديوانه، تحقيق عبدالله سنده ،، دار المعرفة، بيروت،ط1، 2006.
18- دار الهدى الوطنية، ألف ليلة وليلة، المجلد الثاني، بيروت، 1981.
19- ابن دراج، ديوانه،حققه وعلق عليه محمود على مكي، منشورات المكتب الإسلامي ،دمشق ط1 ،1961.
20- دعبل الخزاعي، ديوانه ، ط1، د.ت.
21- ابن دريد، ديوانه، قدم له ووضـع هوامشـه وفهارسـه راجي الأسـمر، دار الكتاب العربي، بيروت،ط1، 1995.
22- ذو الأصبع العدواني، ديوانه، تحقيق عبدالوهاب محمد العدواني و محمد نائف الدُّليمي، مطبعة الجمهور، الموصل، 1973
23- ابن الرومي، ديوانه ،شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، 1993.
24- زهير بن أبي سُلْمَى، ديوانه، دار لبنان، بيروت، 1964.

25- سلامة بن جندل، ديوانه، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1910
26- الشريف الرضي، ديوانه ج2، شرحه وعلق عليه وضبطه وقدم له محمود مصطفى حلاوي، شركة الأرقم بن الأرقم، بيروت، ط1999،1 .
27- الشريف المرتضى، ديوانه، مج3، شرح محمد التنوجي، دار الجيل، بيروت، 1997.
28- شهاب الدين الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف،ج2، قدم له وضبطه وشرحه صلاح الدين الهواري، مكتبة دار الآداب، الشارقة ط2000،1
29- شهاب الدين الأبشيهي، مختارات من المستطرف في كل فن مستظرف، حققه وهذبه ناصر عبدالفتاح، مكتبة مصر، 2005.
30- صاحب خليل إبراهيم، الصورة السمعية في الشعر العربي قبل الإسلام،2015 .
31- صريع الغواني" مسلم بن الوليد الأنصاري"، ديوانه، ج2، عنى بتحقيقه والتعليق عليه، سامي الدهان ،دار المعارف، ط3 ، د.ت.
32- صفي الدين الحلي، ديوانه، عمر فاروق ، 2016.
33- الطبري، تفسيرالطبري ، ج21، دار الفكر، بيروت ،1405 هـ
34- أبوعبدالله محمد بن الكتاني الطبيب،كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق إحسان عباس، دار الشروق د:ت.
35- ابن عبدربه، ديوانه، حققه محمد التنوجي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1، 1993 .
36- ابن عبدربه، العقد الفريد ج 1، دار الفكر، 2019.
37- عبدالرحمن أبو فهد ، جذوة المقتبس ص 277 .278 برقم 613
38- عبدالرحيم وهابي ، الشيب في الشعر العربي القديم،، المجلة العربية العدد 582، دار المجلة العربية للنشر والترجمة، المغرب، 2013 م
39- عبيد بن الأبرص، ديوانه، دار بيروت، بيروت، 1983.
40- عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوانه تحقيق محمد يوسف نجم،دار صادر، بيروت، د.ت.
41- أبوالعتاهية ، ديوانه، دار بيروت للنشر والطباعة، بيروت ، 1986.
42- عدي بن زيد ،ديوانه، حققه وجمعه محمد عبدالجبار المعيبد، شركة دارالجمهورية للنشر، بغداد، 1965
43- عرقلة الكلبي، ديوانه، تحقيق أحمد الجندي، دار صادر ، بيروت، 1992.
44- عروة بن الورد و السموأل، ديواناهما، كرم البستاني،دار بيروت، بيروت، 1982.
45- أبوالعلاء المعري، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق ودراسة عبدالمجيد دياب، دار المعارف ، القاهرة، ط1992،2 .
46- أبوالعلاء المعري، سقط الزند، دار صادر و دار بيروت، بيروت،1957.
47- أبوالعلاء المعري، اللزوميات ج1/ج2، تحقيق أمين عبدالعزيز الخانجي،مكتبة و الهلال (بيروت)ومكتبة الخانجي (القاهرة)1924.
48- علقمة الفحل، ديوانه، السيد أحمد صقر، المطبعة المحمودية، القاهرة، ط1، 1935.
49- علي بن الجهم، ديوانه، وزارة المعارف، المملكة السعودية،د.ت.
50- علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ديوانه، اعتنى به عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة ، بيروت ط3، 2005.

51- العماد الأصـفهاني ، خريدة القصـر وجريدة العصـر(1) قسـم شـعراء المغرب، تحقيق محمد المرزوقي وآخرين، الدار التونسية للنشر،1966.
52- عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، شرح وتحقيق وتعليق محمد عبدالمنعم خفاجي و عبدالعزيز شرف، المكتبة الأزهرية، القاهرة، 2007م.
53- عنترة بن شـداد، ديوانه، قدم له وعلق حواشـيه سـيف الدين الكاتب و أحمد عصـام الكاتب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ، 1981.
54- أبوفراس الحمداني، ديوانه، دار صادر، بيروت، 2005م.
55- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني ج3،ج2، دار الفكر، د.ت.
56- الفرزدق، ديوانه، دار صادر ودار بيروت، ط1، 2006.
57- أبو القاسم الآمدي ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري، ، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، ج2، د.ت.
58- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، 1423.
59- كعب بن زهير ، ديوانه، دار الشواف للطباعة والنشر ، الرياض، ط1، 1989
60- لجنة من الأسـاتذة في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسـيط،ج 1 مراجعة إبراهيم أنيس وآخرين، أمواج للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1987
61- محمد بن يوسـف الحلبي المعروف بناظر الجيش، شـرح التسـهيل المسـمى ب" تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد" ج7، تحقيق علي فاخر وآخرين ، دار السلام، القاهرة ، ط1، 1428.
62- مرتضـى الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس،ج1 ، المطبعة الخيرية القاهرة ، ط1 1306هـ
63- المرقش، ديوانه " ديوان المرقشين"تحقيق كارين صادر، دار صادر، بيروت ط1، 1998.
64- ابن المعتز، ديوانه، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ط1، د.ت.
65- ابن المعتز، ديوانه, د.ب، 1891.
66- المقرى التلمسـاني، نفح الطيب من غصـن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسـان عباس ج3 ، ج6، د.ت.
67- ابن منظور ، لسان العرب، قدَّم له العلامة الشيخ عبدالله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرعشلي ، مذيل بمعجم المصطلحات العلمية والفنية،بيروت، 1970 م.
68- المهلهل بن ربيعة، ديوانه، شرح وتقديم طلال حرب، الدار العالمية،د.ت.
69- النابغة الذبياني، ديوانه، ، دار صادر،بيروت، ط3 ، 2011.
70- أبونواس، ديوانه، حققه وضـبطه وصـححه، أحمد عبدالمجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت،1984.
71- ابن هشام الانصاري، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب مجلد 1 د.ت.
72- أبوهلال العسكري ،ديوان المعاني، ج1/ج2، 1979م.
73- الواحدي ،شـرح ديوان المتنبي، ، ضـبطه وشـرحه وقدم له وعلق عليه وخرَّج شـواهده، ياسـين الأيوبي و قصي الحسين، دار الرائد، بيروت ط1 1999.
74- plato, Republic, Book 3,para,380)
1- القذال: مفرق ارأس
2- ينظر حازم القرطاجني منهاج البلغاء وسراج الأدباء

3- لقتير: ابتداء الشيب
4- المعروف بالسـيد المرتضـى والشـريف المرتضـى وعلم الهدى، وأخوه الأكبر الشـريف الرضـى جامع نهج البلاغة. كان نقيب الطالبيين في بغداد وأمير الحاج والمظالم بعد أخيه الشريف الرضي وقد ورثوا هذه الأشياء عن أبيهم.
5- القصـيدة في ديوان عمر بن أبي ربيعة مثبتة في ديوانه وتنسـب - أيضـا - لعبدالرحمن بن محمد العتبي ، ابن عقيل الهمذاني، شرح ابن عقيل ج1، ص471
6- المعروف بالسـيد المرتضـى والشـريف المرتضـى وعلم الهدى، وأخوه الأكبر الشـريف الرضـى جامع نهج البلاغة. كان نقيب الطالبيين في بغداد وأمير الحاج والمظالم بعد أخيه الشريف الرضي وقد ورثوا هذه الأشياء عن أبيهم.